تأثير شخصية الإمام محمد بن عمر الهواري في أهالي وهران

The influence of the personality of Imam Muhammad ibn Omar al-Hawari on the people of Oran

شوالين محمد سنوسي*

جامعة وهران 1 (الجزائر)،

ملخص:

إن الباحث في تاريخ المغرب العربي، يلاحظ التفاف الأهالي حول أعلام التصوف، من أولياء الله الصالحين، ولعل ذلك راجع إلى الانفصام الذي حدث بين السلطة السياسية والمجتمع، فالتجأ الأهالي إلى المشايخ والأولياء، حيث ظلت الذهنية الشعبية مرتبطة بالسلطة الروحية المتمثلة في مشائخ الصوفية أكثر مما كانت مرتبطة بسلطة زمنية معينة تجمع شتات القبائل المتنافرة، فقد كان لكل مدينة رمزها الروحي، الذي يؤلف بين القلوب. فالثعالبي ظلَّ حياً –ثم ميتاً– يمثل رمز السلطة الروحية في مدينة الجزائر وما جاورها، وكانت قسنطينة ومازالت مدينة سيدي راشد وتدعى تلمسان –رغم وجود سلطة زمنية بها في ذلك الزمن– "مدينة سيدي بومدين الغوث، وفي معسكر كانت الطريقة القادرية التي أسسها سلف الأمير عبد القادر هي التي تمثل تلك السلطة، وفي الشلَف وما حولها كان يمثله آل أبَهْلَول المجاجي.

الكلمات المفتاحية: الهواري ؛ التصوف ؛ السلطة الزمنية؛ الحواضر، وهران

Abstract:

The researcher in the history of the Arab Maghreb notes that the people gathered around the flags of Sufism, among the righteous saints of God, and perhaps this is due to the split that occurred between the political authority and society, so the people turned to the sheikhs and saints, as the popular mentality remained linked to the spiritual authority represented by

*المؤلف المرسل

the Sufi sheikhs more than It was linked to a certain temporal authority that gathered disparate tribes, as each city had its own spiritual symbol, which unites hearts. Thaalabi remained alive - and then dead - representing the symbol of spiritual authority in the city of Algeria and its environs, and Constantine was and is still the city of Sidi Rached and called Tlemcen - despite the existence of a temporal authority in it at that time - "the city of Sidi Boumediene, relief, and in the camp was the Qadiriya method founded by the prince's predecessor. Abd al-Qadir represented that authority, and in and around Shalef he was represented by the Abhloul al-Majaji family.

مقدمة:

إن الباحث في تاريخ المغرب العربي، يلاحظ التفاف الأهالي حول أعلام التصوف، من أولياء الله الصالحين، ولعل ذلك راجع إلى الانفصام الذي حدث بين السلطة السياسية والمجتمع، فالتجأ الأهالي إلى المشايخ والأولياء، حيث ظلت الذهنية الشعبية مرتبطة بالسلطة الروحية المتمثلة في مشائخ الصوفية أكثر مما كانت مرتبطة بسلطة زمنية معينة تجمع شتات القبائل المتنافرة، فقد كان لكل مدينة رمزها الروحي، الذي يؤلف بين القلوب. فالثعالبي ظلَّ حياً –ثم ميتاً– يمثل رمز السلطة الروحية في مدينة الجزائر وما جاورها، وكانت قسنطينة ومازالت مدينة سيدي راشد وتدعى تلمسان –رغم وجود سلطة زمنية بها في ذلك الزمن– "مدينة سيدي بومدين الغوث، وفي معسكر كانت الطريقة القادرية التي أسسها سلف الأمير عبد القادر هي التي تمثل تلك السلطة، وفي الشلَف وما حولها كان يمثله آل أبَهْلَول المجاجي.

وفي عنابة كانت المشيخة في عائلة "ساسي البوني" وفي غيرها من المدن والجبال والسهول كان غيرهم من الرموز الروحيين، الذين مازالت آثارهم المتمثلة في الأضرحة والقباب تدل عليهم، وتدل على ما كان لهم من سلطة روحانية على الأهالي. وإذا كان الحس "الوطني" كما نفهمه اليوم يكاد يكون منعدماً عند الخاصة بل العامة، فإن "الحس الروحي" المشوب بالتصوف هو الذي كان يجمع شتات القبائل والإمارات تحت مظلته، وبه كانوا يشعرون أن مصيرهم واحد إزاء الغزو الصليبي لهم، فرغم تفرقهم وتناحرهم أحياناً، من أجل توسيع نفوذهم واكتسابهم لمزيد من الإقطاعات، إلا أنهم سرعان ما توحدهم

كلمة "الجهاد" في سبيل الذود عن حرمة الإسلام وحماه، وأن الصوفية في الغالب هم الذين كانوا يغذون تلك الوطنية الدينية" أو ما يمكن أن نطلق عليه "سلطة الصوفية ."

وكان القطب الصوفي محمد بن عمر الهواري يمثل تلك السلطة في وهران، فمن هو هذا الولي الصالح؟

التعريف بالإمام[1]:

الشيخ الولي الصالح العارف باللّه القطب محمد بن عمر الهواري، من بين علماء مدينة وهران وسلطان أوليائها على الإطلاق، فهو ينتسب إلى قبيلة «هوارة»، كما يدل على ذلك اسمه، ولد في بلدة السور المجاورة لمدينة مستغانم في 1350 ميلادية، وكان أبوه من أعيان القبيلة، وتكفل بتهذيبه رجل عالم صالح يسمى «علي بن عيسى»، كان كثير السياحة شرقًا وغربًا برًا وبحرًا، أخذ بفاس عن موسى العبدوسي والقباب وببجاية عن شيخه أحمد بن إدريس وعبد الرحمن الوغليسي، وكان يثني على أهل بجاية كثيرًا لمحبتهم الغرباء والفقراء ومحافظاتهم في معاملاتهم على الخلل، وسافر من فاس للشرق للحج فيدخل مصر فلقي بها الحافظ العراقي وغيره وأخذ عنهم وجاور مدة بالحرم الشريف بين مكة والمدينة. ثم سافر للقدس وجال ببلاد الشام، وكان في جامع بني أمية يأوي في سياحته لغيضة ملتفة فتأوي إليه السباع والوحوش العادية، ثم استقر أخيرًا بوهران مثابرًا على العلم والعمل والصدق في الأحوال، وانتفع به جمع كثير من خلق الله، وعند قرب أجله كان أكثر كلامه في مجالسه في التبشير بسعة رحمة اللّه وعفوه. قال بعضهم: وكان مقطوعًا بولايته، وعنه أخذ الكثير ومن أبرزهم الإمام إبراهيم التازي.

آثـــاره

من آثار سيدي الهواري العلمية:

1- منظومة التسهيل.

2- شرح المنفرجة.

3- كتاب السهو والتنبيه.

4- تبصرة السائل.

5- التبيان.

مكانته

لعل تردد اسم هذا العارف الكبير في التراث الشعبي المحلي لمدينة وهران لم يأتي عبثا، وإنما لمكانته العلمية والاجتماعية لدى ساكنة وهران، فهو بمثابة الأب الروحي لأهل وهران حيث اقترن اسمه باسمها فلا تذكر وهران إلا وذكر اسم سيدي الهواري ومما يدل على مكانته في قلوب الجزائريين عامة وأهل وهران خاصة ما يلي:

1-اتخاذ ضريحه مزارا قصد التبرك وطلبا لاستجابة الدعاء، وهي عادة توارثها سكان المدينة جيلا بعد جيل.

2- أن العروس بوهران تزور مقام سيدي الهواري محملة بالهدايا قبل أن تبدأ حياتها الزوجية، إيمانا منهم بأن هذا الفعل يجلب الخير والبركة على الزوجين الجديدين.

3- تسمية المواليد من الذكور والإناث باسمه تيمنا وتبركا رجاء أن يكونوا صالحين مثله.

4- الوعدة السنوية التي تقام سنويا من أجل إحياء ذكراه قصد التذكر والاعتبار.

5- تداول اسمه في الأهازيج الشعبية.

6- الأساطير التي نسجت حوله والكرامات التي نسبت إليه.

أخلاقه:[2]

اشتهر الإمام محمد بن عمر الهواري بين الناس بالصفات الحميدة والأخلاق الحسنة التي جعلت له مقاما حميدا في قلوب الناس وذكرا حسنا خالدا إلى يوم الدين ومن الأخلاق التي اتصف بها الإمام على سبيل المثال.

1- **التواضع وحسن التعامل مع الناس** ودليل ذلك استخدامه اللسان الدارج في التواصل مع العامة من أجل نفعهم وإفادتهم وإلى يشر الشيخ أبو عبد اللّه ابن الأزرق بقوله:

(ووقفت لبعض العصريين أن الشيخ الولي الشهير الهواري نزيل وهران لما ألف السهو الذي عمل عليه التنبيه أخذه الفقيه أبو زيد عبد الرحمن المعروف بالمقلاش فوزن فيه أشياء وأعرب فيه أشياء فأتي به الشيخ وقال له: يا سيدي إني أصلحت سهوك فقال له الشيخ: هذا السهو يقال له سهو المقلاش، وأما سهوي فهو أن الفقراء إنما ينظرون فيه إلى المعنى، ومن أين العربية والوزن لمحمد الهواري بل سهوي يبقى على ما هو عليه).

قال ابن الأزرق: وفي مراعاة هذا المعنى على الجملة أنشد غير واحد:
وما ينفع الإعراب إن لم يكن تقى...وما ضر ذا تقوى لسان معجم.

وربما ينتقد البعض عدم استخدامه للفصحى وقد يعتقدون ضعف ملكته اللغوية. والأقرب للمنطق والعقل أنه خاطب الناس بما يفهمون وذاك تواضعا منه.

2- تنزهه منذ الصغر عن كل ما يشين ويخل بالمرؤة إذ تشير المصادر أنه كان لا يشارك أقرانه ألعابهم، زاهدا في المأكل والمشرب والملبس ولا يكذب أبدا.

3- كان زاهدا متقشفا، متباعدا عن الملوك والأمراء متفانيا في العبادة مثابرًا على العلم والعمل، والصدق في الأحوال.

4- طيبة مجالسه ونورانيتها حيث كان أكثر كلامه في مجالسه في التبشير بسعة رحمة الله وعفوه.

أعماله

بعد استقرار الإمام بوهران قام بما يمليه عليه الواجب وهو خدمة أمته وتسخير ما أنعم الله به عليه من علم وما استفادة من تجارب وخبرات في سبيل رقيها وتقدمها ومن أهم أعماله.

1- **التربية والتعليم**: أسس زاويته العلمية في وهران، عكف فيها على نشر العلم وتزكية النفوس بالتربية الروحية فكانت نواة لنهضة علمية ومنارة علم، تدرس العلوم الشرعية والتصوف، زيادة على الجانب الاجتماعي، حيث توفير الإقامة للطلبة ولإيواء القادمين إليها، وتقديم الخدمات للمحتاجين ومقصدا لحل النزاعات وفض الخصومات.

2- التدخل لحل مشاكل الناس

احتل الإمام سيدي الهواري مكانة عظيمة في نفوس أهل وهران حتى غدا أبا روحيا لسكان مدينة وهران، بحيث كان يقصده الناس من كل حدب وصوب للاستشارة وطلب الرأي في مختلف القضايا التي تهمهم وتعنى بحياة المجتمع اليومية، كما جاء في الأثر أنه كان يقرأ أسئلة وأفكار زواره قبل التحدث إليهم، ويحكي لهم ما يدور بمخيلتهم بفضل الكرامات التي وهبها الله إياه، وباعتباره من أولياء الله الصالحين ذوي الكرامات، كان المريدون يقصدونه من أجل العلاج وحل مشاكلهم، وكان كذلك بمثابة قاضي المدينة يفض النزاعات بين المتخاصمين، وكان التجار يقدمون له الهدايا زيادة على الهدايا التي كانت ترد إلى الزاوية من كل جهة وتوزع على الفقراء أو تصرف في احتياجات الزاوية.

أسباب تعلق الناس بسيدي الهواري وتأثرهم به

1- شخصية الإمام:

من خلال دراسة شخصية الإمام نجد أنه جمع بين الشريعة والحقيقة أي بين الفقه والتصوف من جهة وبين مشاركة الناس اهتماماتهم اليومية من جهة أخرى الأمر الذي أهله لأن يكون محل تقدير وإجلال انقاد له الناس وتوارثوا ذكره الطيب جيلا عن جيل يذكرون فضله على وهران الباهية بالانتساب إليه والمفتخرة بسلطته الروحية عليها.

جاء في روضة النسرين لابن صعد (هو شيخ الشيوخ،المشهود له بالتثبت والرسوخ. كان هذا الولي سيدي محمد الهواري رحمه الله آية من آيات الله في ذلك الزمان وشيخ مشايخه في المقامات والعرفان. سبقت له من الله العناية،فجمع بين العلم والولاية،ورقاه في درجات التقوى إلى الغاية...وبعد رجوعه من

البلاد المشرقية،نزل مدينة وهران فاستقر بها قراره،واطمأنت بها داره، وجلس بها لنشر العلم وبثه والدعاء إلى الله تعالى، فانتفع الخلق على يديه، وظهرت عليهم بركته.

2- فقدان الثقة في السلطة الزمنية:

إن تدخل العلماء والأولياء لحل مشاكل الناس اليومية ،وتوسطهم لهم لدى أولياء الأمور وقدرتهم على الوفاء، أكسبهم ثقة الناس، بحكم أن تدخلهم يلبي للناس حاجياتهم المادية والمعنوية التي قد تعجز السلطة الزمنية عن تلبيتها خاصة زمن الاضطرابات السياسية فهم المشهود لهم بالصلاح وحسن تعاملهم مع الناس، وحسن تدبرهم في الدين، وهم زهاد يميلون إلى الآخرة، كما شاركوا في معارك ضد الغزاة، وساهموا في رفع لواء الحق في بلدانهم، كما حرصوا على نشر تعاليم رسالة التوحيد، وتخرج على أياديهم علماء أجلاء أناروا دروب الإنسانية عبر حقب زمنية.

مظاهـر التأثـر

من مظاهـر تأثـر شخصية الإمام سيدي محمد بن عمر الهواري.

1- أن ذكره لايزال حيا بين الناس وما هذا الملتقى الكريم إلا دليلا على ذلك.

2- تسمية المواليد باسمه.

3- المداومة على زيارة ضريحه.

الهوامش

[1]- شجرة النور الزكية، ص 254.البستان، 228. تعريف الخلف، 1/ 170. الضوء اللامع، 8/ 272. درة الحجال، 2/ 289.

[2]- شجرة النور الزكية، ص 254.البستان 228. تعريف الخلف 1/ 170. الضوء اللامع 8/ 272. درة الحجال 2/ 289